□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الإِرَادَةِ □

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يُريدون وجهَه ....** ﴾ الآية [الأنعام : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإنْ كُنتنَّ تُردْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ اللهَ أعدَّ للمُحسناتِ منكنَّ أجرًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وما لأحدٍ عندهُ من نعمةٍ تُجزىٰ إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربّه الأعلىٰ ولَسوفَ يرضىٰ** ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] .

وصدَّر شيخُ الإسلام الهرويّ الأنصاري هذا البابَ بقول الله تعالى : ﴿ **قلْ كلّ يعملُ على شاكِلَتِه فربُّكم أعلمُ بمن هو أهدىٰ سبيلًا** ﴾ [الإسراء : ٨٤] .

قال ابن القيم معلِّقًا في « المدارج » (٢/٣٧١) : « في تصديره الباب بهذه الآية : دلالة على عِظم قدره ، وجلالة محلِّه من هذا العلم ؛ فإن معنى الآية : كلٌّ يعمل على ما يشاكله ، ويُناسبه ، ويَليق به ؛ فالفاجر يعمل على ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ، ومريد الدنيا وجيفَتِهَا : عامل على ما يناسبه ، ولا يليق به سواه . ومحبُّ الصُّوَر : عامل على ما يناسبه ويليق به .

فكلُّ امرئٍ يهفو إلى ما يحبُّهُ وكلُّ امرئٍ يصبو إلى ما يناسبهْ

فالمريد الصادق المحبُّ لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له ، فهو يعمل على شاكلةِ إرادته ، وما هو الألْيق به ، والأنسب لها » .

قال ابن القيم : « وقد أشكل على المتكلِّمين تعلُّق الإرادة بالله ، وكون وجهه تعالى مرادًا ؛ قالوا : الإرادة لا تتعلَّق إلَّا بالحادث ، وأما بالقديم : فلا ؛ لأنَّ القديم لا يُراد . وأوّلوا « الإرادة » المتعلِّقة به بإرادة التقرُّب إليه . ثم إنه لا يُتصوَّر عندهم التقرُّب إليه . فأوّلوا ذلك بإرادة طاعته الموجِبة لجزائه .

هـذا حاصل ما عندهم . وحجابهم في هـذا الباب غليظ كثيف ، مِن أغلظ الحُجُب وأكثفها ، ولهذا تجدهم أهلَ قسْوة ، ولا تجد عليهم روح السلوك ، ولا بهجة المحبَّة » .

« وقد تنوَّعتْ عبارات القوم عنها ، وغالبهم يُخبر عنها بأنها ترْك العادة . ومعنى هذا : أنَّ عادة الناس غالبًا التعريجُ على أوطان الغفلة ، وإجابة داعي الشهوة ، والإخلاد إلى أرض الطبيعة . والمريد منسلِخٌ عن ذلك ، فصار خروجه عنه : أمَارةً ودِلالةً على صحَّة الإرادة ؛ فسُمِّي انسلاخُه وترْكُه : إرادة .

وقيل : نهوض القلب في طلب الحقِّ .

ويُقال : لوعة تهوِّن كلَّ روْعة .

قـال الـدقَّـاقي : الإرادة لوْعة في الفؤاد ، لَذْعة في القلب ، غَرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيرانٌ تأَجَّجُ في القلوب .

وقيل : من صفات المريد : التحبُّب إلى الله بالنوافل ، والإخلاص في نصيحة الأمـة ، والأنس بالخلْوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثـار لأمْره ، والحياء مِن نظره ، وبذْل المجهود في محبوبه ، والتعرُّض لكلِّ سبب يُوصـل إليـه ، والقناعة بالخمول ، وعدم قرار القلب حتى يصل إلـى وليِّـه ومعبوده .

وقال حاتم الأصمُّ : إذا رأيتَ المريد يريد غيرَ مراده ، فاعلمْ أنه أظهرَ نذالتَه .

وقيل : من حِكَم المريد : أن يكون نومُه غَلَبة ، وأكْلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة : أن تشير إلى الله ، فتجده مع الإشارة . فقيل له : وأين تستوعبه الإشارة ؟ فقال : أن تجد الله بلا إشارة .

وهذا كلام متين فإن المراتب ثلاثة :

أعلاها : أن يكون واجدًا لله في كلِّ وقت ، لا يتوقف وجودُه له على الإشارة منه ولا من غيره .

الثاني : أن يكون له مَلَكَة وحالٌ وإرادة تامَّة ، بحيث إنه متى أُشير له إلى الله ، وجدَه عند إشارةِ المشير .

الثالث : أن لا يكون كذلك ، ويتكلَّف وجْدانَه عند الإشارة إليه .

فالمرتبة الأولى : للمقرَّبين السابقين . والوسطى : للأبرار المقتصدين . والثالثة : للغافلين .

وقال أبو عثمان الحِيري : مَن لم تصحَّ إرادتُه ابتداء ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا .

وقال : المريد إذا سمِع شيئًا من علوم القوم فعمل به ، صار حكمةً في قلبه إلى آخر عمْره ينتفع به . وإذا تكلَّم انتفع به مَن سمِعه . ومَن سمع شيئًا من علومهم ولم يعمل به ، كان حكايةً يحفظها أيامًا ثم ينساها .

وقال الواسطي : أول مقام المريد : إرادة الحقِّ بإسقاط إرادته .

وقال يحيى بن معاذ : أشدُّ شيءٍ على المريد : معاشرة الأضداد .

وسئل الجُنيد : ما للمريد حظٌّ في مجازات الحكايات ؟ فقال : الحكايات جند من جند الله يثبِّت الله بها قلوبَ المريدين . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نَقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ [هود : ١٢٠] » .

دفاعُ ابنِ القيِّم عن الجُنَيْد :

ذُكر عن الجُنيد – سيِّد الطائفة – في الإرادة كلمةٌ مجمَلة تحتاج إلى تفسير ، ففسَّرها ابن القيم مدافعًا عن الجُنيد ومكانتِه :

قال الجُنيد : « المريدُ الصادق غنيٌّ عن العلماء » .

قال ابن القيم : « قلتُ : إذا صدق المريد ، وصحَّ عقْد صِدْقه مع الله ؛

فتح الله على قلبه ببركة الصدْق ، وحسْن المعاملة مع الله : ما يُغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضْلةٌ ليستْ مِن زادِ القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم ؛ من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ، ومعرفة مفسدات الأعمال ، وأحكام السلوك . فإن حال صدقه ، وصحَّة طلبه : يُريه ذلك كلَّه بالفعل .

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليلَه ونهارَه في علْم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ، ومواضع المتاهات فيها ، والموارِد والمفاوز . وآخرُ : حمَلَه الوجْدُ وصِدقُ الإرادة على أنْ ركب الطريق وسار فيها ، فصدْقُه يُغنيه عن علْم ذلك القاعد ، ويُريه إياها في سلوكه عِيانًا .

وأما أن يُغنيه صدْق إرادته عن علْم الحلال والحرام ، وأحكام الأمر والنهي ، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علْم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه ؛ فقد أعاذ الله مَن هو دُون الجُنيد من ذلك ، فضلًا عن سيد الطائفة وإمامها . وإنما يقول ذلك قُطَّاع الطريق ، وزنادقة الصوفية ومَلاحِدتهم ، الذين لا يروْن اتِّباع الرسول شرطًا في الطريق .

وأيضًا فإنَّ المريد الصادق يفتح الله على قلبه ، وينوِّره بنورٍ مِن عنده ، مضاف إلى ما معه مِن نور العلم ، يعرف به كثيرًا من أمْر دينه ، فيستغني به عن كثير من علْم الناس ؛ فإن العلم نور ، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ، ومعه نور الإيمان ، والنور يهدي إلى النور . والجُنيد أَخبرَ بهذا عن حاله . وهذا أمر جزئيٌّ ليس على عمومه ، بل صدقه يُغنيه عن كثير من العلم . وأما عن جملة العلم : فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورةِ الصادِق إلى العلم ، وأنه لا يفلح مَن لم يكن له علْم ، وأن طريق القوْم مقيَّدة بالعلم ، وأنه لا يحلُّ لأحد أن يتكلَّم في الطريق إلا بالعلم – فمشهورٌ معروف ، قد ذكرنا فيما مضى طرَفًا منه ؛ كقوله : « من لم يحفظِ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ ، لا يُقتدىٰ به في هذا

الأمر ؛ لأنَّ علْمَنا مقيَّد بالكتاب والسنة » .

وأيضًا فإن علم العلماء الذين أشار إليهم : هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة .

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفِظ السنة ، والله يرزقه ببَرَكَة صِدْقه وَنور قلبه فهْمًا في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ ، يُغنيه عن تقليد فهْم غيره »[1] .

والمريد الصادق لا يقصرُ هِمَّته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان ، وروح المحبَّة وأعمال القلوب .

فالبَوْن شاسِعٌ بين من يسير بالقلوب والأرواح ، ومَن يسير بمجرَّد القوالب والأشباح .

والمريد لله بصدْقٍ:إذا أراد الله به خيرًا ؛ أوْقعه على طائفة يهذِّبون أخلاقه ، وَيَدلُّونه على تزكية نفسه ، وإزالة أخلاقها الذميمة ، والاستبدال بالأخلاق الحميدة ، ويعرِّفونه منازل الطريق ومفازاتِها وقواطعها وآفاتها . لا مَن يدُقُّك بالعبادة ولا يذيقك شيئًا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس .

والبصير الصادق يضرب في كلِّ غنيمة بسهْم ، ويُعاشر كلَّ طائفة على أحسن ما معها ، ولا يتحيَّز إلى طائفة ، وينأى عن الأخرى بالكلِّيَّة : أن لا يكون معها شيء من الحقِّ ، فهذه طريقة الصادقين . ودعوى الجاهلية كامنة في النفوس .

ولا أعني بذلك أصغريهمْ ... ولكني أُريد بهِ الذُّوَيْنا

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان وطعْمَ الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلُّها من قلبه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٦٦ - ٣٦٨ .

عِلْمُ السُّلوك مَبنيٌّ على الإرادة :

قال الهرويُّ : « الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته » .

قال ابن القيم : يريد أنَّ هذا العلم مبنيٌّ على الإرادة ، فهي أساسه ومجمع بنائه ، وهو مشتمِل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، كما أن عِلْم الفقهِ يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح .

فالفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهةِ موافقتها لأمْرِ الشرع ونهيه ، وإذنه وكراهته ، ومتعلِّقات ذلك .

والمريد : ينظر في تلك الحركات من جهة كوْنها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه أو مصحِّحة له .

لا بدَّ للسالِكِ مِن ثلاثةِ أشياء :

ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء :

نفس مستعِدَّة قابلة لا تعوز إلا الداعي .

ودعوة مُستَمَعَة .

وتخلية الطريق مِن المانع .

فما انقطع مَنِ انقطع إلَّا من جهةٍ من هذه الجهات الثلاث .

الدرجةُ الأُولى في الإرادة : « ذَهابٌ عن العاداتِ بصحَّة العلم ، مع صدْق القصد ، وخلْع كلِّ شاغلٍ » :

هذا يُوافق مَنْ حَدَّ « الإرادةَ » بأنها : مخالَفةُ العادة . وهي ترك عوائد النفس ، وشهواتها ، ورعوناتها وبطالاتها . ولا يمكن ذلك إلَّا بهذه الأشياء التي أشار إليها ؛ وهي : صحبة العلم ومعانقته ؛ فإنه النور الذي يُعَرِّف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه ، وما ينبغي إيثار تَرْكه . فمَن لم يصحبْه العلم ، لم تصحَّ له

إرادة ، باتفاق كلمة الصادقين . ولا عِبرةَ بقطَّاع الطريق .

وقال بعضهم : متى رأيتَ الصوفي الفقير يقدح في العلم ، فاتهِمْه على الإسلام .

وصدْق القصْد يكون بأمرَيْن :

أحدهما : توحيده . **والثاني** : توحيد المقصود .

فلا يقع في قصْدك قسْمَة ، ولا في مقصودك .

وممَّا يُعين على الإرادة وترْك العادة : ترْك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك ؛ من صحبة الأغيار ، والتعلُّق بالأوطان ، التي أَلِف فيها البِطالةَ والنذالةَ ؛ فليس على المريد الصادق أضرُّ من عُشَرَائه ووطنه ، والقاطعين له عن سيره إلى الله تعالى . فلْيغتربْ عنهم بجهْده .

قال بعضهم : انظرْ كلَّ ما يقطعك عن الله فاقطعْهُ .

الدرجَةُ الثانية : « تقطُّعٌ بصحبةِ الحال ، وترويحُ الأنْس ، والسَّيْرُ بين القبْضِ والبَسْطِ » :

إذا صحَّت له الدرجةُ الأولى أسلمتْه إلى هذه الدرجة العالية ، فينتقل مِن رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها ، ومواجيدها ، وأحوالها ؛ فيترقَّى من الإسلام إلى الإيمان ، ومن الإيمان إلى الإحسان . فإن السالك في أول الأمر يجد تعَبَ التكاليف ومشقَّة العمل ؛ لعدم أُنس قلبه بمعبوده ، فإذا حصل للقلب روح الأُنس زالتْ عنه تلك التكاليف والمشاقُّ ، فصارت قرَّةَ عيْنٍ له ، وقوَّةً ولذَّةً ؛ فتصير الصلاة قرة عيْنِه ، بعد أنْ كانت عملًا عليه . ويستريح بها ، بعد أن كان يطلب الراحة منها . فله ميراثٌ مِن قوله ﷺ : « أرِحْنا بالصلاة يا بلال » ، « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » ؛ بحسب إرادته ، ومحبَّته ، وأُنْسه بالله سبحانه وتعالى ، ووحشته مما سواه .

وأمَّا « السيْر بين القبْضِ والبسْط » :

فـ « القبض » و« البسْط » : حالتان تَعرِضَان لكلِّ سالكٍ ، يتولَّدان من الخوْف تارةً ، والرجاء تارة ، فيقبضه الخوف ويَبْسُطه الرجاء .

ويتولَّدان من الوفاء تارة والجفاء تارة ؛ فوفاؤه : يُورثه البسْطَ ، وجفاؤه يُورثه القبْض .

وقد يهجم على قلْب السالك قبْضٌ لا يدري ما سببه ، وبسْط لا يدري ما سببه . وحكم صاحب هذا القبْض أمران :

الأول : التوبةُ والاستغفار ؛ لأن ذلك القبْض نتيجةُ جِنَايةٍ أو جفْوة ، ولا يشعر بها .

والثاني : الاستسلام حتى يمضيَ عنه ذلك الوقت ، ولا يتكلَّف دفْعَهُ ، ولا يستقبل وقتَهُ مغالبةً وقهْرًا ، ولا يطلب طلوع الفجْر في وسَط الليل ، ولْيَرْقُد حتى يمضيَ عامَّة الليل ، ويحين طلوعُ الفجر وانقشاعُ ظلْمة الليل ، بل يصبر حتى يهجم عليه المَلَكَ . فالله يقبض ويبسط .

وكذلك إذا هجَم عليه وارِدُ البسْط : فلْيحذرْ كلَّ الحذَرِ من الحركة والاهتزاز ، ولْيحرزْه بالسكون والانكماش . فالعاقل يقف على البِساط ، ويحذر من الانبساط ؛ وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم ؛ إذا ما ورد عليهم ما يسرُّهم ويَبسُطهم ويهيج أفراحهم ؛ قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجمْ عليهم .

وقال كعْب بن زُهَيْر في مدْح المهاجرين :

ليسوا مفاريحَ إنْ نالتْ رماحُهُمُ ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نِيلُوا

فلا يخرجه البسْطُ عن استقامته ، وملازمَتِهِ رعاية حقوق سيِّده ، مع التأدُّب بآدابه . ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه .

ونختمُ بما قال شيخ الإسلام عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلامُ ، لا يكنْ همُّك ما تأكل وما تشرب ، وما تلبَس وما تنكِح ، وما تسكن وما تجمع ؛ كلّ هذا : همُّ النفس والطبْع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمّك ، فليكنْ همّك ربّك عزَّ وجل وما عنده »(١) .

* * *

(١) إحياء فقه الدعوة للراشد ، مجلة المجتمع ص ١٣٦ .